الشعراء وأشباحهم

القصة الكاملة بحثاً عن مجموعة شعرية ضائعة

شاكر لعيبي

من قال أن الشعراء في العالم العربي هم الضمير الأنقى لحكمة صافية؟ من المأساة إلى الطرفة ثمة خيوط متّصلة متشابكة. لا شيء يبرهن على أن الأمور تجري كما يتمنى المرء لجهة طهرانية هذه الشريحة التي تضع نفسها في مصاف سماوات حريرية عالية، أعني المثقفين، والشعراء منهم على وجه الخصوص. قد يكون الخطاب المعاكس جديراً باهتمام أكبر من الركون إلى خرافات الأولين عن نباهة وحكمة وسمو الشعراء التي نتخيلها ونتمناها من أعماق قلوبنا. لا شيء يبرهن على ذلك أو إلا القليل منه. ثمة كذلك أشباح الشعراء المخيفة.

في المماحكات التي تنقصها الرحمة بيننا وبين خصومنا، وفي انهماك بعضنا بملذات السلطة الصغيرة والكبيرة، وفي تأويلات الرعب التي كان البعض يختلق الذرائع لها، وفي تبديل المواقع السريع الذي يفترض فقدان الذاكرة لدى القراء، وفي السرقات الأدبية والشعرية، ثمة أمثولات على ما نقول. ويمكن أن يفسّر الأمر بالعودة إلى المصادر التاريخية للشعر العربي التي تنطوي على صورة متفارقة للشاعر: الحكيم من جهة، والمارق الذي لا يحتفظ حتى من البعد الأخلاقي الرفيع أحياناً إلا بأقلّه. لنتذكر بهذه المناسبة شتائم الهجاء المقذع التي تمتلئ بها أمهات كتب التراث التي لا أحسب أننا سنجد مثلاً لها لدى الثقافات لشعرية الأخرى.

ثمة أزمة أخلاقية إذن، وثمة الكثير من الإدعاء والصخب في الممارسة الثقافية العربية الحديثة نادراً ما شهدت بلدان أخرى في العالم مثيلا لها. لقد جرى تلطيف طبيعة هذا الصخب ضمن خطاب مزوق مستتر. هناك اليوم رفض باهر لكل نزعة في النقد الذاتي الراديكالي الوحيد الكفيل بانتشال الثقافة من خرافاتها القديمة والجديدة على حد سواء.

صورة الشاعر العربي المحفورة في الذاكرة التاريخية بوصفها تناقضاً جذرياً ممكناً بين اللا ممكنات، لم تحلها لا عقلانية العصر الحديث ولا عدميته التي لم يتوغل في تواشجاتهما وأصولهما ذاك البعض من الشعراء العرب. بعبارة أخرى فإن هذا البعض، من الصغار والكبار، يجد في المصادر القديمة صورة له من جهة، ويطلع من جهة أخرى، من سياقات التخلف الاجتماعي المتغلغل في كامل النسيج الإنساني والممتد حدود الثقافة، بل أنه ينهل منها من دون نقد لها وإن زعم نظرياً تخطيها. كل الأعيب اليوم ألاعيبه أحياناً، وكل رذائل الإنسان الجاهل رذائله مرات. سمو الممارسة الشعرية الذي يزعمه بعض الشعراء العرب لا وجود له بكل بساطة. عنفوان ورقي الشاعر الحديث الافتراضي نظري محض، حتى يمكن القول أن تعريفاً دقيقا للشاعر المعاصر وتحديد نطاق عمله لا وجود لهما اليوم في الثقافة العربية. لا الرومانسي الحالم حاضر بين ظهرانينا ولا المتمرد الحقيقي. لا الحكيم الصارم ولا العابث الجوال، لا العدمي المحض ولا الفيلسوف الحق. ثمة صورة غامضة للشاعر العربي مستلهمة في أجزاء كبيرة منها من الإرث الشعري القديم وفي نتف منها من الشاعر الأوروبي المعاصر وما يسميه الفيلسوف الكندي فيشر بـ"جماليات الشر". ثمة لهذا السبب قوالب جاهزة سريعة الانهيار للقول الشعري الحديث.

نتحدث عن الشاعر بوصفه مثالاً راقياً للوعي الإنساني. لكننا نتحدث مداورةً عن فئة المثقف.

إن هفوات ممارسي الكتابة الشعرية والأدبية، من الهواة والحقيقيين، لا تقل فداحة عن أقرانهم. سأروي بعد قليل ما أسميه تندراً بالقصة الكاملة في البحث عن مجموعة شعرية لي ضائعة. قبل ذلك لأتمّم فكرتي من شواهد موضوعية قبل الوصول إلى الشخصي. ولنقل كلمة عن التجربة الشخصية التي لم تجر إعادة الاعتبار لها إلا في (أدب السيرة)، ويجري في ثقافتنا تأويل استخدامها، بإصرار وخفة، بأشد أنواع التأويلات سوءاً كأننا نستلهم العدم أثناء كتابتنا الشعرية والنقدية على حد سواء، وليس حيواتنا الحميمة، وكأن هذه التجربة الفردية محض خداع بصري أو كأنها إعلاء مجاني لمجد ذات زائفة. علينا ردّ الاعتبار إلى التجربة الشخصية شعرياً ونقدياً.

ثمة أمثلة عن هفوات ليست نادرة تقع في صميم استلهام أجواء التخلف السائدة من جهة، ومن جهة أخرى غموض الوظائف المحيطة بالمثقفين والشعراء، وهي تؤدي كلها إلى ممارسات من كل نوع. أن يسرق امرؤ نكرة كتاباً أو مقالاً أو قصيدة هو أمر مفهوم إلى حد كبير، لكن أن يسرق وزير ثقافة سابق مثل ثروت عكاشة الكتاب الكامل لأتنغهاوزن عن الفن العربي الإسلامي، فهو أمر يشير، بوضوح شديد، إلى أن ثمة أشباحاً مؤذية تتسلل في أبهاء الثقافة العربية. لقد ألمح كاتب السطور إلى هذه السرقة مرة في صحيفة عربية واسعة الانتشار (الحياة)، ولم يحر الرجل المعني جواباً، ولو زعم أنه لم يفعل لكانت الفضيحة مدوية. استراتيجيته كانت الصمت لكي تمر الفضيحة وتموت بهدوء، وهي استراتيجية لا تليق بمثقف متهم بالسرقة، وتعزّز فرضيتنا بصدد استلهام الممارسات الثقافية الراقية لأسوأ أنماط الفعل الاجتماعي الشعبي. إنني أزن كلامي بميزان الذهب عندما أقول أن غالبية كتب الدكتور ثروت عكاشة عن تاريخ الفن الأخرى هي محض سرقات مموهة، تعتقد صعوبة اكتشاف مصادرها في ثقافة عربية لا تعنى قطاعاتها العريضة بتاريخ الفن. ثمة مثال عن شبح آخر في هذا السياق هو الدكتور كمال الدين سامح، أستاذ العمارة في جامعة مصرية عريقة، ومؤلف (العمارة في صدر الإسلام) الذي يسرق الكتاب كاملاً من مؤلف انكليزي ويضع عليه اسمه. وفي مثال هذا المؤلف الكريم ثمة شواهد على استخفاف كبير بالقارئ العربي لجهة أسلوب الترجمة الحرفي ونقل أسماء العلم التي لم يكلف الدكتور الفاضل نفسه حتى عناء تثبيتها من مصادرها الأصلية التي يزعم أنه قرأها. ليقل لنا أننا نتهمه باطلاً لكي نقيم عليه الحجة بشواهدها الدامغة.

ثمة أشباح تدفع بكوابيسها دفعاً في قلب أحلام الثقافة من دون أن يرف لها جفن. كل يوم نرى مثالاً على شبح جديد. ما هو الفارق بين شاعر ونصاب؟ تختلط الأدوار أحياناً في الزمن الحالي. في موقع على الأنترنيت (يوم ٢٥ (2005 -7 – ينسب أحدهم بجسارة كلمة للمعماري د.علي ثويني بشأن شاعرين عراقيين. كتب ثويني في الدفاع عن نفسه قائلاً: "أخبرني أحد الأخوة الكرام بمقال لي على مواقع الأنترنت تحت عنوان ((هنا توجد أسماء الشاعرين)، أدباء أم أدب الاستجداء؟؟)، يتعلق بنقد لشخوص أسمائهم (.....) وحين إطلاعي وجدت أنه محض هراء وافتراء لا يمت لي بصلة ولم أكتب حرفاً واحدا منه وإذ أعلمكم أن الأشخاص المذكورين لا أعرفهم ولا أعرف فحوى مشكلتهم، واذا ما لفق باسمي، وأسمي أظنه معروفاً بتواضع جم، هو محض قلة لياقة يراد منها إشعال فتنة بيني وبين أناس لم أتشرف بمعرفتهم". قبل ذلك يكتب شبح آخر في موقع الشاعر سعدي يوسف سباباً باسم رؤوف مسعد موجها إلى سعدي يوسف سيصفه الروائي المصري في كلمة توضيحية لاحقة بالجبن العربي.

الشبح يمضي باللعبة في هذه الحالة بعيدا. هاته الأشباح مشعلة حروب كذلك، وقد صارت تُحكم تخفيها بوسائل الظلام الحداثي، الميديا الحديثة التي تستثمرها مرة أخرى بطريقة متخلفة، لا تليق بالفعل الثقافي العالي. يكتب سيد يدعو نفسه بالراشدي في دفتر الزيارات في موقع سعدي يوسف نفسه جملة مرعبة: "أيها الحقير الذي بعت وطنك من أجل أن تكون عبداً عند الملكة العجوز وتوني".

هاته الأشباح تصير أكثر فاعلية واستثارةً عندما تتماس مع شاعرات عربيات يكتبن نصوصاً مما صار يسمى بالشعر الإيروتيكي. الشبح هنا يفضح انحطاطاً كاملاً، وينسى تماماً شروط الثقافة لصالح شروط الاستمناء في العتمة. تصل إلى البعض من الشاعرات العربيات الجديدات رسائل من شعراء عرب لا ينقصها التهذيب فحسب، إنما تتعامل معهن كعاهرات رخيصات يأخذن ثمناً. الشبح هنا شاعر لن نسميه باسمه الحقيقي لأننا من دون شك لا نسعى إلى الفضيحة لكن للمعرفة، وستسميه الشاعرة المعنية يوماً. ما تحذفه الشاعرات العربيات من دفاتر الضيوف في مواقعهن شيء يندى له الجبين، وحتى البعض مما هو باق يفوح بروائح مريبة مثل العبارة التي يدرجها أحدهم في موقع الشاعرة جاكلين سلام: "هل لأنثى أن تحمل بين ذراعيها رحيلا أبديا للحرف الموغل في دمي ، أنا من وقف أمام قصيدتك و ضاجعها حرفا حرفاً". ضاجعها حرفاً حرفا أبو زيد الهلالي، الشبح المكبوت، المكبوح يصرح عن نفسه ويطلق آهة مكبوتة أمام الأنثى العربية، الشاعرة.

سنقول أن لا علاقة لنا بكل هذه الفوضى وسنمر عليها مؤثرين السلامة في عالم من الأشباح، لولا أنها صارت تمسنا في صميم وجودنا الإنساني وقلبنا الثقافي والمعرفي. يد الشبح تمتد لتصيب كل كبد حرى.

كل مرة يتعلق الأمر فيها بتجربة فريدة من تجاربنا في الوجود من تلك التي نحسبها محض عرض زائل بمسبباتها وأشكالها وأبطالها، يظهر لاحقاً أنها تنميط وتأصيل وتجل لظاهرة عامة على نمط الأمثلة المقالة أعلاه. من هنا لا يجب إشاحة الوجه عما قد يبدو عرضياً لأنه قد يكون دالة ودليلاً على داهية ومعضلة عامة. ها هي تفاصيل قصة يتوجب أخذها على محمل أقل طرفة: فقد كنت أحسبني الفريد الذي أضاع مجموعة شعرية أثيرة معنونة (تتويج الشجرة الهرمة)، لاكتشف أن غيري قد ضيّع درره الفريدة قبلي. واكتشفتُ أن ضياع مخطوطة شعرية أو روائية أو حتى سرقتها جهاراً نهاراً يتعلق بسلم القيم المتدهورة في مجتمعات ريفية عشائرية سادت الحروب بعضها طيلة ثلاثين عاماً. علينا الاعتراف بهذا الأمر، لأنه لا يمس فحسب العنصر الموضوعي الخارجي، ولكنه يمس كينونة الكائن الداخلية نفسها، الكائن الناهض من الخراب والمتكون في مدرسة الخراب والقبائل. كتبتُ مرة، عرضاً، عن (جيل الخديعة) في العراق، فقامت الدنيا ولم تقعد، واليوم يكتب قاسم محمد عباس في صحيفة (المدى) مقالة ذات عنوان ذي مغزى (المستشرقون العراقيون). استشراقهم هو بعض تكوينهم الأولي الطالع من ذاك الخراب المؤلم والخديعة عينها. مقالة محمد تعلن طرفةً سوداء، وسأمرّ على ما يشبه الطرفة المماثلة بمناسبة المجموعة الشعرية الضائعة المذكورة التي صرت أفتش عن متنها المخطوط منذ بعض الوقت. في خضم ذلك ظهر لي، كما سيظهر لأي قارئ منصف، أن القضية تتعلق من باب أولى بقيم جديدة مستولية على المثقفين والشعراء في بلداننا، لا أنتمي مثل الكثيرين غيري، لمدرستها. كما أن إيراد تفاصيل ومراسلات هذه القصة يستهدف قبل أي أمر آخر وضع تصورات كتاب وشعراء آخرين عن الموضوع أمام القارئ النابه، وفي بعض كتابات مكاتبينا الكثير من العبر والدلالات.

فقد نشرت ندائي "بحثا عن مجموعة شعرية ضائعة" في موقع على الأنترنيت، جاء فيه: "في هذا النداء يرجو الشاعر شاكر لعيبي من يمتلك أي معلومات عن مخطوطة مجموعته الشعرية الضائعة (تتويج الشجرة الهرمة) تزويده بها. يتعلق الأمر بمجموعة قُدمت أواخر سنوات السبعينيات إلى وزارة الإعلام العراقية التي رفضت طبعها. ولدى مغادرة الشاعر العراق عام ١٩٨٠ طلب من أحد أصدقائه استرجاعها من الوزارة المذكورة وهو ما فعله حقا وسلمها لأخيه حازم لعيبي الذي بدوره أعار المخطوطة لشاعر سبعيني صديق (حميد قاسم). ومن حينها تقلبت المخطوطة بين أيد كثيرة من الشعراء الشبان يومها الذين نعرف البعض منهم والذين جرى الاستفسار من لدنهم عن مصير المجموعة دون جدوى أو دون إجابات من بعضهم. لسوء الحظ لم يقم الشاعر بالاحتفاظ بأي نسخة من القصائد الكثر لـ (تتويج الشجرة الهرمة)، (لكن قد توجد نصوص متفرقة منها في بغداد) وهو يشعر اليوم بالأسى والحسرة والألم الجم على فقدان هذا المنجز الشعري الذي يعتبره واحداً من أهم أعماله الشعرية. يرجو الشاعر من أعماقه بالمعنيين بالأمر تزويده بالمعطيات التي قد تكشف عن مصير ومكان تلك المجموعة. ويمكن الكتابة إليه عبر عناوينه الإلكترونية التالية (...) أو إلى المحرر الأدبي في الصحيفة أو الصحف التي ينشر فيها هذا النداء".

أول ردود الفعل جاء من الروائي حمزة الحسن الذي كتب معلقاً يقول: "ربما يكون من حسن الحظ أن نبحث عن ديوان شعر ضاع في زمن ما، وأنا أبحث عن رواية كاملة ضاعت، في زمن تبحث فيها الناس عن مفقودين وموتى..إلخ. لكنك أفضل حالاً مني لأني وجدت روايتي وقد تركتها عند صديق مخطوطة بخط يدي يوم هربت، وجدتها مطبوعة باسمه وبنفس العنوان! لم أتكلم أبداً وصمت. ماذا نفعل؟ تقبل عزائي".

كانت كلمة المواساة القصيرة هذه صدمة غير سارة على الإطلاق. فكتبت إليه: "قرأت تعليقك على موقع (...) وقد ألمني قدر ما أثار في نفسي من التساؤلات عن الشرخ العميق في الروح الثقافي العراقي في ظل الخرابات الدائبة. لم أتوصل لأعمالك الروائية للأسف حتى اللحظة، ولك اعتبار هذا تقصيراً فعلياً من طرفي". بعد وقت قصير من ذلك كتب الروائي الحسن من جديد رسالة تفصيلية يشرح فيها ملابسات السرقة التي تعرضت لها أعماله: "صديقنا المشترك علاء اللامي بحث لي عن رقم هاتف صديقي المعني لكي أعاتبه على الأقل وحين حصل على رقم هاتفه لم أجد في نفسي الجرأة حتى لمكالمته. أنا الذي خجلت. والمشكلة هي إنه يعرف نفسه بعد كل مقال بأنه روائي ومؤلف رواية ويكتب اسمها! (...) عندي قناعة راسخة هذه الفترة إننا نتجه إلى خراب جديد أعنف وأشد، فما قيمة سرقة كتاب أمام سرقة وطن؟". والنشر يجري الآن بعد إذن من الروائي.

ثمة إذن مشكل ضارب الجذور اللحظة في الثقافة العربية. لا توجد داهية بعد داهية سرقة الجهد الروحي لكاتب أو لشاعر.

في هذه المرحلة من الحكاية سوف يتدخل شبح شعري من أشباح الظلمة الثقافية. فعلى حين غرة ستصل رسالة يزعم مرسلها أنه كتبها من بغداد بعد الاطلاع على ندائي. سأترك الرسالة مثلما هي بالضبط لأن الأوصاف التي يغدقها كاتبها بكرم جم غير مألوفة في ثقافة العراق المعاصر: "الشاعر الكبير شاكر لعيبي، سلام عليك وعلى شعرك العظيم، أنا الشاعر العراقي سعد كاظم ربما لا تعرفني ولكني من قراء شعرك. ولا أبالغ أن قلت إني من تلامذة شعرك. مرتين شاهدت مخطوطة (تتويج الشجرة الهرمة) مرة في الثمانينات عند صديقي الشاعر حازم لعيبي ومرة في التسعينيات عند الشاعر عبد الزهرة زكي، وقد طلبت من الشاعر عبد الزهرة زكي فوعدني بأنه سيجلبها لي مرة أخرى، وحين طالبته بعد أشهر بها أنكر أن يكون امتلكها وبأني واهم. أنا أقول هذا الكلام حرصا عليك وعلى شعرك وأرجو أن تطالبه بها دون أن تذكر اسمي وأعتقد بأن طلباً منك بشكل حازم سيكون كافياً لتسليمها لك لأنه ليس من مصلحته الإصرار على سرقتها وحرمانك من ثمرتها. شيء لا ينفعه ولا يفيده. صديقك الشاعر سعد كاظم، بغداد".

المُرسِل إذن يتوسم البلاهة لدى المُرسَل إليه، وهو يسعى للنفخ في كبريائه، لكي يكون أمر تصديقه ممكناً. لا يضع الرجل كما بدا لي أول وهلة اسماً مستعاراً واسمه يتشابه بغرابة مع اسم الشاعر سعد جاسم الذي كانت قد وقعت بيننا حوارات وتساؤلات عن مصير المجموعة، أبدى فيها الكثير من الغيرة على الشعر. ربما يريد الشبح سعد كاظم من تشابه الأسماء المريب هذا الإيقاع بيني وبين الشاعر سعد جاسم. من طرفه، سعد جاسم يقنعني بان صيغة الشاعر الكبير لائقة ولا يتوجب أن أقلل من شأن منجزي الشعري. أصرّ على أنني لا أقلل من شأن منجزي وأعرف قيمته لكن الصيغة المستخدمة غير معهودة لدينا، ففي سجالات كثيرة قرأناها هنا وهناك كان مواطنونا يذهبون بعيداً ويسمون خصومهم الشعريين باسم (السيد فلان) وليس(الشاعر فلان) للإمعان في التقليل من شأنهم عبر الإيحاء بأن لا علاقة لهم من قريب أو بعيد بأرض الشعر الرحيمة. وهنا دليل جديد على استفحال المرضي عديم الرحمة في قلوب الأشباح. لنتذكر على كل حال أن الأمر يتعلق الآن بمجموعة شعرية ولا يحتمل البتة أي مزاح سمج. قارئ الرسالة سيصدق فوراً فحواها، خاصة إذا كان مكتوباً بنيران الشعر وضياعه. الشبح الموحي باسم شاعر يزج فجأة باسم شاعر جديد. المعني يصدق ويسارع للكتابة إلى مواسيه الأول الذي لا يعرف شخصه حتى اللحظة أي الروائي حمزة الحسن: "تثير رسائلك في نفسي الغرابة والدهشة والحيرة. اليوم وصلتني رسالة من شاعر كتبها من بغداد هذا مفادها- مع حذف الأسماء والإبقاء على صيغتها مثلما هي: (نص رسالة الشبح). هل يريد هذا الأخ الشاعر إثارة الخراب بيني وبين (ما تبقى لي من أصدقاء) أم أنه يقول الحقيقة صافية؟ علماً بأن اسمه حقيقي وليس مستعارا. ها أنا أكتب للصديق الشاعر عبد الزهرة على أمل أن أجد لديه ما يشفي الغليل".

لن نسمح للشبح بأن يلعب اللعبة كما يشاء ويتوجب التصرف بدهاء أكبر. رسالتان متواليتان تصلان من حمزة الحسن تمزج الحرقة بالمرارة، هنا نصاهما: "ليس هناك سبب للحيرة والعجب في هذا الزمان. فهذا زمن كل شيء فيه مباح. سارق الرواية هو أيضا صديق لعبد الزهرة زكي ومعه في جريدة الجمهورية سابقا. ولكنه صديقي أو أظن ذلك، ولم يخطر بباله في منتصف الثمانينيات أن الأمور ستنتهي بهذه الصورة، (...) لو دققت في الكثير مما ينشر من شعر هذه السنوات لوجدته منتحلا بغباء أيضا (...) زيادة في الحيرة أجد أحيانا على المواقع (...) تواقيع احتجاج على قضايا لا اتفق فيها مع المحتجين، وتصلني رسائل عتاب على رسائل لم أرسلها لأحد وغير ذلك. في البداية كان كبدي يحترق، من بعد قرأت لغابريل ماركيز حكايته عن القضية نفسها يقول إن هذه قضية لا نهاية لها وإنه تعلم من هنري ميلر أن أفضل طريقة هي النسيان. طبعا هناك فارق في الموضوع. كتاب أتمنى أن تكون قد اطلعت عليه وهو سيرة ذاتية لبورخيس (مساء عادي في بوينس أيرس) بقلم صديق له وهو شاعر وكاتب أمريكي. بورخيس شخصية تثير الدهشة. مرة جاءه شخص في الشارع وقال له: أنت أعظم كاتب في العالم. رد عليه بورخيس:

– لماذا أنت متشائم يا أخي إلى هذا الحد! كان يتمنى نسيان كل ما كتب بل يتمنى لو لم يكتب شيئا وأن ينسى الناس اسمه، وحين حدثه كاتب سيرته عن الخلود وكيف أنهم سينادونه باسمه قال بورخيس بفزع: يا له من عقاب أن تحمل الاسم نفسه في الأبدية! وحين تزوج سكرتيرته عن عمر فوق الثمانين كي يضمن لها الإرث احتجت العائلة، فأضاف جملة في الوصية: يسمح لهم بالدفن في مقابر العائلة! الكتابة في عالم عراقي هي شرك. الكاتب في مكان آخر يكتب كي يتواصل، ونحن نكتب كي نعاني كل أنواع النفي. مع أننا من لحظة حمل القلم ونحن ندخل في منفى. قد لا تعثر على مجموعتك الشعرية.. وبذلك ستصبح حكايتها استثنائية. رجل منفي يطارد شعره المسروق! وربما في سياق البحث عنها ستكتشف في الطريق منظومة هائلة من القيم . المقدسة! . قد تهمشت وحينها لا تعود القضية قضية ديوان شعر بل قضية مصادرة حياة! كم من المؤسسات التي مرت فيها المجموعة؟ وكم من الأفراد؟ ولماذا احتفظوا بها كل هذا الوقت؟ هل نشرت؟ هل انتحلت؟عاصرت كم من النظم؟ محتواها؟ وأنت أين كنت هذه الفترة؟ كل هذه الأمور تشكل حكاية طويلة لا تتعلق بمصير كتاب شعر إنما بمصير إنسان قرر البعض . البعض! . أن ينهبوا حياته وحتى الأسمال وربما ما تبقى من آمال صغيرة وعاجزة. علينا أن نتحمل حكمة النسيان رغم أني لا اعتقد أن النسيان حكمة بل تدريب. كل الطرق غامضة. لو لم تكن الطرق غامضة . على قول ابن عربي . ما حاجتنا إلى الحكمة؟!. هذه ثرثرة معزول في نهاية العالم لا تشغل بالك بها، وربما لهذا السبب سرقوا مني كل شيء كل شيء. علينا أن نصمت ونتعلم قواعد التاو بلا رغبات ولا طموحات ولا أحلام ولا أحزان ولا آمال . أي نعيش في وضعية حجر في صحراء تحت شمس مهلكة بدون حاجة لشيء أو ماء أو نفس هكذا يراد لنا". انتهى.

سنحاول استنطاق الشبح للمرة الأخيرة لكي يدلي بدلوه. من المؤكد بأنه توسم بنا الغباء المطلق. لقد كتبتُ إليه ببراءة: "أخي سعد، تحية وألف شكر وتقدير لعنائك في كتابة الرسالة لي وإيضاح بعض الخفايا. السؤال هنا هو ألا يمكن إعادة الاتصال بالشاعر عبد الزهرة زكي وتذكيره بالموضوع. لقد أرسلتُ له البارحة رسالة تتضمن ندائي (المذكور) بحثا عن المجموعة وأنتظر منه جواباً. في حال عدم إجابته ألا يمكن إيصال (رسالتي الإلكترونية والنداء) له شخصيا في مكتبه في المدى؟".

في الوقت ذاته كنت أكتب لصديقي القديم الذي يُراد الإساءة إليه ما يلي: "أخي الجميل عبد الزهرة زكي، محبتي الكبيرة. تعرف بأنني قد نشرت نداء في صحافة الانترنيت وفي الصحافة المطبوعة كما آمل بحثا عن مخطوطة مجموعتي الشعرية المفقودة "تتويج الشجرة الهرمة"، والنداء تجده طيا ويا حبذا لو نشر على صفحات (المدى) الغراء. من جهة أخرى وصلتني رسالة إلكترونية من بغداد مفادها أن المجموعة كانت بحوزتك الكريمة في سنوات التسعينيات. أتساءل وأسأل القدر أن يكون الخبر صحيحاً. أوافيك بالتفاصيل إن شئت. أرجو الكتابة لي على عنواني الحالي أو عنواني الإلكتروني (...)".

في اليوم التالي وبفارق زمني بسيط تصلني رسالة من زكي وأخرى من الشبح الذي كتب لي يقول: "أرجو إبلاغي فيما إذا وصلتك مخطوطتك الشعرية، فقد مررت على عبد الزهرة زكي وأبلغته بما طلبته مني ووعدني بأنه في اليوم التالي سيرسلها لك في البريد السريع أرامكس..على عنوانك".انتهى. أما عبد الزهرة فكتب: "من المؤسف أن المعلومة التي نقلها لك أحدهم هي معلومة مخطوءة. أحتفظ لك بنسخة من ديوان مطبوع في السبعينيات هو (أصابع الحجر) وتستطيع أن تكتب لمن نقل لك المعلومة وتطلب منه الاتصال بي لإزالة أي لبس. ولو كانت المخطوطة عندي في التسعينيات لسلمتها إلى حازم حيث كنا نلتقي بشكل مستمر. مرة أخرى يؤسفني أن أطفئ أملاً فتحتَه لك رسالة بغداد الالكترونية. آمل أن توفق في العثور على المخطوطة المضاعة".

من الواضح الآن أن ثمة من يتلاعب بقلوبنا المكتوية بألف نار. سأكتب إذن للشبح كلمتي الأخيرة: "أشكرك على عنائك الزائد في البحث عن مجموعتي الضائعة. وأتمنى من القدر أن يكون جهدك الاستثنائي مثالاً وقدوة تحتذى وإن بطريقة أخرى. لم أكن اعرف أن بريد أرامكس موجود في بغداد. أشكرك مرة ثالثة لإطلاعي على خفايا بلد بعدتُ عنه وعن مؤسساته وأخلاق بنيه طيلة ربع قرن من الزمن. الصورة التي كانت في ذهني عن ذلك كله تقربني من عنوان مجموعة سعد جاسم "طواويس الخراب"، لا أدري فيما إذا قرأت هذه المجموعة؟. لنتواصل، لننقب في هذا الخراب، ولتمرر يد الله المباركة لمسة من لمساتها على روحك إلى الأبد".

هكذا وجدت في عنوان مجموعة سعد جاسم (طواويس الخراب) دالة على ما آل إليه الحال، ملقياً إياه أمام الشبح ليعرف أنني أعرف، وأعرف أنه يستهدف أكثر من شاعر من أصدقائنا بحجر واحد بارع. لم يحر الشبح جوابا بعدها وليس مستغربا أن يغير اسمه وعنوانه الإلكتروني ويعلن أشياء أخرى لا تقل ضراوة وضرراً.

ندفع مرات كثيرة عن أنفسنا فكرة الحداد على موت أخوة وتاريخ. ولا نستطيع ذلك بعد ثلاثين سنة من علاقات الشعر والمحبة، ما نظنه الشعر والمحبة. خاصة من طرف واحد أو اثنين من بعض مجايلينا المهرة. فقد كانوا شعراء أشباحاً ماهرين دائماً في إتقان اللعبة من بين قلائل فحسب من المخلصين لأنفسهم. كنا نحسب نزق الشاعر في الأشباح خاضعا لنبل الكائن الأصيل. رقة أصوتهم خداعة وتخفي ما نكتشف الآن أنه شيء يشبه السم الزعاف. ما كنا نظنه أقنعة الشاعر على وجوههم يبدو اللحظة تكشيرة الشيطان كما ترسمها الأيقونية الوثنية والمسيحية. إننا نرى الآن أقنعة القوالين بالحق والباطل خبط عشواء حسب فتات لا يقبله حتى الطير المبهوت، هذا الطير الذي طالما داعبته أيديهم العذارى، وتمادوا في ذكره في قصائدهم، هذا الطير الذي سيفز مرعوباً لو عرف ما نعرف اللحظة عن قدرة تلك الأيدي على ركوب المراكب. الشفاهي مهنتهم، مثل شعراء جوالين، يقولون كلاماً مختلفاً وفق الحالات المختلفة، الأمر الذي سيعقد كل مهمة في اكتشاف معدنهم الأصيل، لأن من المستحيل تماماً، كما يعرفون ونعرف، أن يجمع الجمع الجميع في بقعة واحدة لكي تتفجر الصغائر. إننا نشعر بحزن عميق وبمرارة لم نشعر بهما من ذي قبل، لأننا كنا نحسبهم من أرواحنا، كأن أرواحنا تتفتت صلصالاً، وهم يصعدون معها في قطارها المسائي الأخير نحو الحقيقة.

لا يوجد الشعراء فقط إنما يوجد أشباحهم أيضاً.

جامعة قابس ٢٣- آب ٢٠٠٥

تخوم فن الرسم .. الرسّام محمد الشمّري نموذجاً

خالد خضير

يفارق الرسامون المحدثون سابقيهم من الرسامين برغبة عارمة في خرق أنساق الفن التشكيلي والاشتغال على التخوم التي تقع بين تلك الانساق المتجاورة، فقد قدم الرسام جبار عبد الرضا (من البصرة) مؤخراً تجربة اطلعنا عليها، كانت منجزاً يحار المتلقي في اجناسيته، ان كان ينتمي الى الرسم او الى النحت، فهو منجز يتوفر على اهم سمات الرسم باستخدام الالوان على سطح مستو، كما يتوفر على اهم سمات النحت وهو التجسيم والمادة والفضاء، حيث تكون اللوحة نحتاً يستقر احد وجوهه على الحائط بدلاً من ان يستقر على الارض، وهذه تجربة بدأت تظهر كثيراً في نتاجات العديد من الرسامين فقد عرضت هناء مال الله اعمالاً فيها قدر كبير من التجسيم وقدمتها في مناسبات عديدة منها مرة في المتحف الوطني للفن الحديث في العاصمة الاردنية عام ٢٠٠٣، في معرض تواشجات بين شاعر ورسامين ، وايضا شاهدت في زيارة اخيرة قمت بها مع الرسام هاشم تايه الى شقة الرسام هاشم حنون في جبل لويبدة في العاصمة الاردنية، اعمالاً عرضها علينا وهي مركبة من مكعبات فوق بعضها، وقد تحولت وجوهها الى "لوحات" وبذلك فهي تتشابه تماماً مع عمل (مثلث الفاو) المجسّم للراحل شاكر حسن آل سعيد الذي كان من مقتنيات مركز الفنون.

لقد اتجه رسامون كثيرون نحو التخوم المشتركة والفاصلة في الوقت نفسه، بين الرسم والخط، فكانت التجربة الحروفية رائدة في هذا الاتجاه، وقد وصفتها مرة بانها بقايا حل يوتوبي في التوجه نحو فن عربي، او قل (تجريدية عربية) هذه المرة، وقد شاهدت ايام إقامتي في العاصمة الاردنية ايضا العديد من محاولات الرسامين لانجاز (لوحات . منحوتات . غرف) تضم داخلها عناصر شتى فيكون المتلقي حراً في التجوال داخل الغرف وبين عناصر العمل المتناثرة واختيار المكان وزاوية النظر داخل ذلك الفضاء (الغرفة . العمل الفني) ، وايضا تجربة (دفاتر الرسم) التي تستعير من فن الخط شكل "السطح" وهو دفتر بدفتين تشكلان "مدونة" خطية اكثر مما تشكلان لوحة تقليدية، كما ان محافظة هؤلاء على مسافة تبعد اشكالها عن امكانية قراءة تلك المدونات يجعلها بعيدة عن نسق "الكتابة" المقروءة للخطاطين التقليديين التي تنتمي للخط، وكان اهم اولئك الذين يطمحون الى انجاز لوحاتهم بشكل "مدونات" غير مقروءة الرسامة الاميرة الاردنية وجدان علي والرسام أتيل عدنان، وهي تجارب تستعير اشكال الحرف العربي اليدوي واشكال الاوفاق والادعية (كوحدات صغرى) في بناء اللوحة.

لقد قدم الراحل شاكر حسن آل سعيد جهداً تنظيرياً في مجال البعد الواحد باعتباره فناً يشكل فيه الخط الناشئ من حركة النقطة، العنصر المكون للوحة فيه، بينما ظل تلاميذه او معاصروه الاصغر منه عمراً من السائرين في ركاب جماعة بغداد للفن الحديث اوفياء للحرف باعتباره الوجه الحداثي (التجريدي) لجماعة بغداد بعد ان كفت (ايديولوجيتها) عن بريقها السابق واكتفى الرسم بحدود لا تتعدى السطح التصويري وشيئية المادة التي يشتغل عليها بعيدا عن (المهمات) الجسيمة التي كانت جماعة بغداد تضعها على عاتق الفنان!..

هل يخضع الرسام (= الخطاط!) محمد الشمري لهذه الرؤية!

حين دخلت موقع الرسام محمد الشمري على شبكة الانترنت www.shammarey.com شعرت لاول وهلة وكأني ادخل رواق احد النساخين ، بحبره الفاحم الاسود واوراقه القديمة الصفر، وهو يعرض مجموعة من دفاتر الرسم التي تلعب فيها ايقونات الاوفاق والتعاويذ والحروف والمخطوطات القديمة وحدات صغرى في تشكيل تجربته الفنية، فهيمنت علي في كل مشاهدة لدفاتر الرسم التي يعرضها فكرة الناقد فاروق يوسف في "موت الرسم" على يد هؤلاء الرسامين الذين يخوضون في التخوم، فقد كان (فعل الرسم) عند فاروق يوسف يعني الممارسة التقليدية في الرسم (painting)بوضع اللون بفرشاة على سطح مهيأ لذلك بينما ينتقل هؤلاء الرسامون من هذه الفعاليّة التقليدية الى ممارسات مجاورة تنتج كذلك سطحاً ملوّنا بآليات اخرى ومواد غير المواد التقليدية لفن الرسم، وهو ما تتصف به تجربة محمد الشمري، فتهيمن ادوات ومواد الرسم غير التقليدية وتنتج اشكالاً غير تقليدية هي الاخرى، بمعنى انها لا تنتمي تماماً لنسق الرسم بل تكتفي بالوقوف في التخوم التي تربط الرسم بالخط ، اشكالاً ذات حواف صلبة تعوم في خلفية زلالية تتراءى من خلفها آثار سطح اللوحة، وهو ما بدأ يطغى على لوحات ينجزها خطاطون محدثون ايرانيون بدأت كمخطوطات كانت تكف عن كونها نصوصاً تبث معاني واضحة، وتتجه لتكون لوحات للرسامين الذين يشتغلون في التخوم التي تجمع فني الرسم والخط.

محمد الشمري